طبطبات لا تنتهي

بقلم:مروة رفعت

obeikan.com

لم تجمعني بأي منهم علاقة حب أو حتى قبول؛ لا أكرههم، ولكني في نفس الوقت لا أحبهم، يمكنك أن تقول إنني أخافهم أو بمعنى أدق أحتاط من التعامل معهم بشكل يسيئون فيه فهمي، فأسبب لهم جرحًا دون أن أقصد، فهو حرج أكثر منه خوف.

ولكن ما حدث في ذلك اليوم حين قابلت واحدًا منهم -من أصحاب متلازمة داون- كان رد فعلي مختلفًا عما اعتدتُ عليه، هؤلاء البشر أصحاب القلوب والوجوه الملائكية التي لا تكاد تنظر إليها حتى تخطفك بابتسامتها، وتحط بك في وادٍ من البراءة والأمل.

كان عمره تقريبًا ثلاثة عشر عامًا، ودون كل الجالسين في مترو الأنفاق ركَّز نظراته عليّ، رغم أنني لم أجلس بجواره، فأنا في أول العربة وهو في منتصفها تقريبًا، ولم يكن هناك زحام كالمعتاد، تبعني بنظراته منذ أن ركبت.. لم يلفت وجهه عني، وكأنه يحمل رسالة إليّ! يختلس النظرات ويبتسم، وكلما نظرتُ إليه زان ابتسامَتَهُ خجلٌ يجعلها أجمل، تحولت الابتسامة إلى بعض اللعب والتلويح باليد من بعيد، فتحولت ابتسامته إلى قهقهات من الضحك ملأت المكان بهجة وسعادة، ونظرت لي أمه ممتنة، وبادلتها النظرة بابتسام.

بالصدفة نزلنا في نفس المحطة، وتوجهنا إلى نفس الباب الذي ينتصف العربة، وما أن وقفت بجواره، حتى أمسك يدي وضحك، ثم تركها وربت على كتفي بـ«طبطبات» أكاد أجزم أنها لامست قلبي وليس كتفي، لا أعرف أين ذهب الخوف والحرج الذي منعني كثيرًا من الاقتراب منهم، ولا أعرف كيف أضعت كل هذه السنين وأنا أبتعد عن التعامل مع هذه القلوب!! غاب صديقي وسط الزحام، دون أن أعرف حتى اسمه، ولم أتحدث مع والدته ولو بكلمة، فلم نتصادق على فيسبوك، ولم نتبادل أرقام هواتفنا، ونظرت أختي التي كانت معي في ذلك اليوم وعلامات التعجب على وجهها؛ كيف تعاملتُ هكذا وهي تعلم جيدًا مهابتي من الاقتراب منهم والتعامل معهم!

رن هاتفي وأجبتُ عليه: ألو هناء..ازيك؟

«إيه يا بنتي من الصبح بكلمك مش بتردي؟»

لم يَنُمّ صوت هناء عن أنها تحمل أي خبر سيئ، على العكس، ولكن شيئًا ما قبض قلبي منذ أن ضغطت على زر الفتح، وقبل أن أجيبها بأي اعتذار أكلمت:

«بصي بقى.. خطوبة عمر أخويا إن شاء الله يوم الخميس الجاي ولازم تيجي، هازعل جدًّا لو مجيتيش وكمان...»

شعرتُ وقتها بما تركته يداه على كتفي من طبطبات، وكأن الـ»فلاش باك» أعادني إلى المكان ثانية، ورأيت وجهه المبتسم، وحنين طبطبته، وأدركت لحظتها أين ذهب الخوف، ومن أين جاءت الطبطبة، ربما لم تجمعني بعمر قصة حب، ولم أقلها له يومًا، ولم أسمعها منه... ولكن كل أمنيات هذه الفترة وأحلامها الوردية كانت مختصرة في شخصه الجميل، وحين سمعت المكالمة وتذكرت الطبطبات قبل قليل فهمتُ الرسالة: ليس الآن، لم يئن الأوان بعد!

- ألو ألو.. نهى.. نهى، روحتي فين؟ الخط قطع ولا إيه؟

- لا معاكي.. مبروك، وربنا يتمم بخير..وهاكون موجودة طبعًا إن شاء الله..

لم تكن طبطبته الأولى، ولم تكن الأخيرة، لازال يرعاني، الحب الأكبر.. صاحب الطبطبة الكبرى.. ما زلتُ أشعر برسائله تلامس قلبي، ويدركها عقلي حين يأتي القضاء، فيهون بها الكثير من الحزن والألم، وتداوي بها الجراح، «أحبك ربي».

obeikan.com